

تمثيلات المدينة السّجن في مدونات بشير مفتي - رحلة الفضاء في الضياع النفسي - Representations of Carceral City in the Writings of Bashir Mufti - The Space Journey in the Abyss of the Psyche -

سارة دريسي¹ ، سليم بركان²

¹ جامعة محمد لمين دباغين سطيف 2، الجزائر، drissi@univ-setif2.dz

² جامعة محمد لمين دباغين سطيف 2، الجزائر، Salimborkane@yahoo.fr

مخبر: مناهج النقد المعاصر وتحليل الخطاب.

تاريخ القبول: 2025/03/19

تاريخ الاستلام: 2024/12/14

ملخص:

يقدم الفضاء بأمكنته وأبعاده الدلالية المختلفة معنيًا لخطاب المدينة السّجن وتمثيلاتها السردية داخل الرواية الجزائرية، ورواية بشير مفتي بخاصة: لأنّ الفضاء هو الحاوي لمجريات الحوادث وشعور الشخصيات، التي هي في حالة بحث مستمرّ عن مكان يضمن توازنها السيكولوجي ويحقّق رغبتها في الحياة، فكلّما فسد الفضاء ضاقت أماكنه انقلبت إلى فضاءات سجنية ضيقة كاتمة على الأنفاس؛ حيث تكون الشخصيات فيها مجرد أعداد لتضخّم سكاني أوسع في سجن أكبر، كما تتحوّل فيها إلى نكرة مستضعفة ومسلوبة الحرية من حيث الفعل والفكر، لتعيش حالة الضياع والانزهاض والاستياء ما يطبعها بالكآبة، والصبغة التشاؤمية.

وبناءً على ما تقدّم، يسعى طرحنا ضمن هذه الدراسة لإستنتاج خطاب المدونة الجزائرية لبشير مفتي عبر مقارنة ثقافية نستعين فيها بالتحليل النفسي والاجتماعي، للإجابة عن إشكالية مفادها:
-كيف تبلورت المدينة السّجن في تمثيلاتها داخل مدونات بشير مفتي؟
الكلمات المفتاحية: التّيه؛ الخوف؛ العنف؛ السّجن الوهمي؛ المدينة السّجن.

Abstract:

The spatial dimensions and significances offer a nuanced interpretation of the discourse on the carceral city and its narrative representations within Algerian literature, particularly in the works of Bashir Mufti. The space, as the container of events and the characters' emotions, becomes pivotal in their continuous quest for a place ensuring psychological equilibrium and realizing their life aspirations. As the space deteriorates, the locations transform into constrictive prison spaces, stifling and breathless. In these spaces, characters become mere figures amplifying a broader societal imprisonment within a larger prison. They metamorphose into disempowered entities deprived of freedom in both action and thought, experiencing a state of loss, defeat, and frustration, imbuing their existence with a melancholic and pessimistic undertone.

Building upon these premises, our study endeavors to probe the discourse of Algerian literature as articulated by Bashir Mufti, employing a cultural approach aided by psychological and social analysis. This study seeks to address the question: How did the representation of the carceral city manifest within Bashir Mufti's writings?

Keywords: Carceral City, Imaginary Imprisonment, Fear, Violence, Alienation.

1_ توطئة:

تتموضع المدينة السّجن في التجربة الروائية، من التّمثّل إلى التّمثيل لتتخذ وضعية السّرد البكائي والتّشاؤمي في رؤية الفضاء المستبدّ والخانق لحرية الشخصيات، سجنٌ تُصنع قضبانه الوهمية من حياة الأفراد (الشّخصيات) الاجتماعية المتأزّمة التي تحيط بأحداثه، لتتبلور من انبهارات ذواتها وأحاسيسها المنكسرة ما يجعل من الأماكن مغلقة وخانقة.

يتعدّى تمثيل الفضاء المغلق للمدينة بوصفه جغرافية سجنية إلى وجوده الروحي والسيكولوجي الذي تظهر آثاره، انطلاقاً ممّا تشعر به شخصياته من خلال حالاتها المتأزّمة انطلاقاً من انعكاساته وآثاره السّلبية التي تشكّل لحظة قبضٍ محكم عليها، يعكس في وجهه الآخر-وبشكل واع-ما تحدّثه الحياة بدواخل هذه الشّخصيات من خوف وفزع وضياح وتيه؛ ما يؤدّي بشكل حتمي للتّخلّي والفرار والتّرك فيصبح الهرب آنذاك الوسيلة الوحيدة لنجاة ما تبقى من ذاكرة هذه الدّوات المجموعة اتّجاه فضائها المدني.

إنّ هذه التّوليفة التّركيبية في الإسقاط التّمثيلي بين الفضاء المدني الفسيح والمتحصّر وبين السّجن كمؤسسة عقابية مغلقة، شكّل مادّة ثقافية مزاحمة عن هويتها وتقديماتها المتوافق عليها؛ فالمدينة فضاء سردي شكّل انفتاحية الأحداث والشّخصيات التي تمارس حياتها بالطريقة اللامحدودة داخل نطاق جغرافي يواكب موضحة الحداثة والعصرنة، ويفتح المجال المطلق في ممارسة الرغبات واستباحتها ف«يتجاوز فيها القديم والحديث بكلّ مكوّناته وظواهره التي تخصّ الثقافة والعمارة واللبّاس والسلوك، ومُجمل نظم العيش وتقاليده» (العيد، 2011)، فالمدينة بالنسبة لشخصياتها زمنٌ لمكان يمضي ولا يُمضى عليه، إذ تنبئ بتكوينيتها عن خطابات الإنسان الثقافية والحضارية التي تشكّلت بداخلها، فهذا الفضاء الأجوف في حاجة إلى روح تسكنه بكلّ وجودها حتّى تبعث فيه الحياة، فالمدن رغم كلّ وجودٍ تطلّ «مجموعة الفضاءات/الفراغات التي صاغها الإنسان لتكون سكنه وتحتوي وجوده الفردي والجماعي» (الرؤوف، 2017)؛ وعليه فإنّ الإنسان هو المتحكّم في طبيعة ما يحيط به انطلاقاً من تكيفه مع هذه الفراغات التي يؤثّر فيها معلناً خاصيته الفردية ثمّ علاقاته التبادلية داخل الجماعة، إذ يرجع هذا إلى كون الإنسان اجتماعي بطبعه، ومع هذا النّشاط الفعلي الذي يقوم به تجاه فضائه يصبح فيه هذا الأخير هوية خاصّة لمن سكنه أو ساهم في تشكّله أو تغيّره وتبدّل ملامحه، هذا ما يجعلنا نقرّ أنّ «فضاء وجود الإنسان هو انعكاس لحقيقة هذا الإنسان وجوهه وقيمه الاجتماعية والثقافية والتاريخية» (الرؤوف، 2017)؛ ممّا يبرر تغيّر ملامح المدينة وجوانبيتها، إذ أنّ الإنسان المعاصر شكّل حضارته مدناً تتجاوز جغرافيتها وتتصدّى لحدائيتها التي تهض من قيمها ومبادئها وتاريخها نحو محاكاة قيم اجتماعية وثقافية من تاريخ جغرافيات لا ترتبط بها- ثقافة- حضارة- ممّا يطرح السّؤال الآتي: هل استطاع الإنسان العربي عموماً، والجزائري خصوصاً أن يصوغ سكنه الفردي ثمّ الجماعي في تحقيق استقراره المدني؟

إنّ ما تطرحه مكانية مفتي في سرديته المدنية يجسّد انفلاتاً حضارياً وواقعاً لأزمة رهيبه تعانيها المدينة، ممّا يجعل منها فضاء سجنياً، باعتبار هذا الأخير- أي للسّجن- مؤسسة عقابية رهيبه تضبط بقوانين صارمة جزاء الأفعال الإنتهاكية للمجتمع، ويصطلح عليه المكان المغلق الذي يمارس به العنف اللفظي والجسدي تحت ذريعة إعادة الإصلاح بحكم القانون، ليصبح فيها المحكوم عليه مقصياً اجتماعياً داخل قيم الثقافة السائدة؛ حيث يلاقي من خلالها الكثير من الموانع، فيشكّل السّجناء فيها طبقة اجتماعية جديدة تحمل صفة المسبوقين قضائياً، وبعيداً عن السّجن كهندسة طوبوغرافية لها نظامها الخاصّ المعبر عن انغلاقها، فإنّنا ننقله على أنّه: «فضاء للقهر ولاستلاب الدّات الإنسانية وإذلالها وإلغاءها نهائياً، فكلمة السّجن تحيل مباشرة على معاني سلبية (...) من شتى أنواع التعذيب الجسدي والتّفسي» (محمد و صابر، 2018)؛ للسّجن وهو ما يهدف في الحقيقة إلى إلغاء هذه الدّات وطمسها والتّضييق عليها الانضواء تحت مظلة طبقة من الطبقات

الاجتماعية الموجودة في السّجن؛ ومن الملاحظ أنّ هذا ما ينعكس على الشّخصيات السّردية داخل مدينة مفتي في خطاباته عن تمثيل المدينة السّجن، إذ شكّلت ما اخترناه من المدوّنات موضوع الدّراسة مدينة عقابية في فترة زمنية تعيسة محكومة بالضّياع والاغتراب والوحدة، أين أضحت الشّخصيات فيها رهينة الأمكنة المغلقة، فغدت الدّوات تتحرّك ضمن مجتمع سجنّي.

تنبني تمثيلية السّجن كفضاء يتّسم بغياب شبه كلّ للأمان وعدم الشّعور بالحرّية، ممّا يشمل مدناً بنسيج ثقافي ترسم ملامحه ذوات فردية متأزّمة، لتعيش في سياق خانق وروتيّني، يكون منغلقة تماماً مثل قضبان السّجن، يعيش فيها الفرد المتأزّم جريمته المجهولة، ذنبه الوحيد أنّه يتواجد في فضاء أقصت زمنيته حيثياته المهّمّشين وحياتهم، وأهدتهم بدل الحرّية كومةً من الأوهام تهدّد استمراريتهم، ولعلّ هذا ما يطرح جدلية الدّاخل والخارج التي تتعلّق بالفضاء حسب المفهوم الباشلاري، إذ يصرّح غاستون باشلار Gaston Bachelar قائلاً: «وضع هينري ميشو في دواخلنا الخوف من الأماكن المغلقة (Claustrophobie) والخوف من الأماكن المفتوحة Agoraphobie جنباً إلى جنب، وهو بهذا قد حول الخطّ الفاصل بين الدّاخل والخارج، وبفعل هذا- من منطق سيكولوجي- حطّم اليقينيّات الكسولة للحدوس الهندسية التي يسعى علماء النّفس بواسطتها للتّحكّم بالمكان وحتّى مجازياً لا شيء له صلة بالألفة يمكن اجتيازه داخل مكانٍ مغلقٍ» (غاستون، 2000)؛ ومنه الانفتاح سلبياً في معناه النّفسي، حين يضيق وتختفي منه ألفة المكان، إذ يتجاوز وجوده الهندسي وبنائه اللّامحدود وعدد السّنين التي مرّت وتمرّ، ليصبح مكاناً سجنياً يتحوّل انفتاحه إلى انغلاق سيكولوجي يكسبه الاغتراب، هذا ما يمكن إسقاطه بشكل جليّ على تحولات المدينة المتأزّمة التي تُظهر مأساويتها وسجنيتها، فمهما كانت أماكنها فضفاضة وحادثة إلاّ أنّ حالاتها اللاّ إستقرارية تغلب على طابعها الطّوبوغرافي، خاصّة أنّ: «انفساح المكان أكثر يجعلنا نشعر بالاختناق أكثر من المكان الضيق ممّا نحتاج» (غاستون، 2000)، هذا ما ينفي العلاقة الجغرافية للأماكن مع التّأثير السّلبّي على ذواتها؛ حيث يظهر أنّ ما يؤثّر عليها في الحقيقة هو وضعية هذه الأماكن في جانبها الرّوحي والوظيفة التي تؤدّيها في بناء الصّرح المدني.

يعاد تمثيل المدينة السّجن في السّردية الروائية على أنّها خطاب ثقافي للملح سيكولوجي، ممّا يجعل القراءة الثّقافية أقرب للغوص في تلافيف المزايم الثّأوية مع الاستعانة بالمجال المعرفي لعلمي النّفس والاجتماع لكونهما الأنسب في اقتحام مضامين التّحوّل الطّارئة على الملح الثّقافي لكيان الفضاء الحضاري وانعكاساته؛ حيث يتنامى الشّعور داخلها بالقضبان الوهمية نتيجة لتجارب الحياة للشّخصية الفردية ثمّ داخل المجتمع عامّة وما تمرّ به وقائع هذه المدينة، ممّا ينعكس سلباً على الشّعور النّفسي فتصبح مسكونةً بفكرة الانزواء أو الهروب؛ فتتلاشى أهمّية أماكنها لتنهار صورة الانتماء إليها ممّا يدفعها نحو الفرار أو ما هو أسوأ، ويقودنا هذا الطّرح إلى إشكالية محورية في مقالنا مفادها: كيف تبلورت المدينة السّجن في تمثيليتها داخل روايات بشير مفتي: أرخبيل الدّباب، أشباح المدينة المقتولة، اختلاط المواسم؟ والتي تتفرّع عنها جملة من الأسئلة، أهمّها:

- كيف كانت قضبان وجدان المدينة السّجن في سردية مفتي؟
- كيف انغلق الفضاء الحضاري المفتوح على شخصياته؟
- هل هناك حياة لذوات هذا الفضاء ما بعد المدينة السّجن؟
- هو الشّعور الذي يتمثّل في المدينة وشخصياتها؟

أولاً: تمثيلات المدينة السّجن في روايات بشير مفتي: أرخبيل الذّباب، أشباح المدينة المقتولة، إختلاط المواسم:

1. تمثيلات المدينة السّجن وقضبان الوهم:

تسلّلت روتينية الحياة التّشاؤمية إلى شخصيات المدينة، وأصبحت فضاء معاديا بسبب جمودها وقمعها التّام لأيّ تطوّر أو تحرّك، فسماتها سكون خانق يهيمن على تطوّرها ووجهها الحضاري، فيجعلها في جغرافية قضبان لا مريّة، تأسر شخصياتها في حالة نفسية مزرية، فالتأثير السيکولوجي الذي تمارسه أحداث المدينة يشكّل حياة مزدوجة ومنقسمة، وحالة شعورية تمتزج فيها جملة من المتناقضات السّلبية التي تفضي إلى أشياء كثيرة.

تجسّد رواية أرخبيل الذّباب حالة شعورية لشخصياتها باختناق وتقييد لا ينتهي داخل فضاء مدينة الجزائر التي تعيش اللاّ استقرار والكثير من الإحباطات، وقد تسلّلت إلى يومياتها، وكانت كافية لتحطّم حرّيتها، فكلّ ما يتمتّع به كونه بقي حيا وفقط، فأمام هذا الصّراع الوجودي للشّخصيات داخل الوطن الذي يحلم كلّ شخص فيه بأمال ونجاحات باهرة تأتي شخصية الراوي لتشارك في رسم مستقبل سعيد، تمتلك فيه كلّ مقوّمات الانتماء والافتخار كونه داخل هذا البلد، إلّا أنّ لمستقبلها رأياً مغايراً، يقول الراوي: «عندما كنت في مقبّل العمر لم أتصوّر الحياة بهذا الشّكل القاتل ولم يكن لدي مقدرة على مواجهة إحباطات المكان الذي كانت تعصف به ألوان شتّى من الصّراعات والمنافسات العنيفة. كان أحد الذين أيقظوا داخلي بذرة القلق رجلٌ في الخمسين من عمره (...) صاحب مكتبة صغيرة بعي باب الواد، اشتراها بعد عودته من هجرته الطويلة بعيداً عن البلد، وكانت المتنقّس الوحيد.» (بشير، 2010)؛ ومن الملاحظ في هذا الخطاب طغيان السّوداوية على حاضره الذي أحدث خرقاً لأفق توقّعاته سنوات عمره الماضية والحالمة، التي لم يدرك فيها ما سكت عنه الزّمن في صغره إلّا بعد معاشته نماذج الواقع، أين أصبحت المكتبة المغلقة في مكانيتها المنزوية داخل المدينة هي المتنقّس من السّجنية المفتوحة على فضاء رحب بمساحته، يعيش فيها، فلم تكن الشّخصية الخمسينية واختيارها لفضاء.

لقد انعكس وضع المدينة إلى دواخل الدّوّات بإحداث خواء مخرب لها على المستوى النّفسي، ممّا يجعلها تعيش مكرهه في علاقتها بالوطن، ما يهدّد كيائها الجسدي والنّفسي والفكري في امتلاك الأمان. والملاحظ أنّ سجنية الفضاء المدني تنتقل من العامّ إلى دواخل الدّات، فلا تفسح المجال لها لتقديم أنفسها داخل فضاءها، ممّا يجعل وضعها قمعيًا، وقد أثار سرد الراوي لحالة سمير نوعاً من الحالة الرّهيبية التي تعيشها الشّخصيات الحالمة والموهوبة بقوله: «أنّ يستسلم قليلاً لحالته الوجدانية المتكسّرة، أن يشعر بالفراغ والحزن، أن يمتلئ بأصوات الأشباح التي تزوره كلّما خلا إلى عزلته، وأن ينصت عميقاً لتلك الأشياء المتداخلة والمهمة، الغامضة والحالمة، تلك التي توحى أنّ عالماً بأكمله ينداح في أعماقه الملتهية (...) كضوضاء مختلطة لا يمكن فكّها بسهولة، لأنّها تنهمر انهمازاً عنيفاً ولا تعطيه الفرصة كي يتكلّم فيها. إنّها تدفعه إلى الهذيان المر» (بشير، 2010)، والملاحظة لهذه الحالة السّعورية من اليأس ما هي إلّا نتيجة لفضاء قمعي، الذي يستعمل وسائل بشعة في امتصاص الأحلام وتحطيمها، إذ لا تؤمن بالدّوّات الطّموحة ممّا تشكّل قوقعةً من الفراغ المغلّف بالحزن والأسف، إنّ الهدوء الذي تحافظ فيه على سجنيتها ما هو إلّا إعصار يعصف دواخلهم، تتحوّل فيها اللّقاءات إلى أطيايف أشباح تتزاحم على الدّائرة وتغوص في زمنية استرجاعية يختلط فيها الحنين إلى الماضي وفعل الثّبات في الحاضر ليصنع عالماً داخلياً يهذي باستمرار.

الحالة الهستيرية التي تصنعها العزلة ما هي إلّا وضع طارئ على ذات سجنية القدر في فضاءها المحتوم، الذي أصبح فيها زنزانة انفرادية تحول بينه وعالمه المنشود، إذ يقول الراوي عن إحدى شخصياته: «لقد عاش عزلة رهيبه لفترة تجاوزت العامين تقريباً، حتّى استتبّ أمر السّلطة في يد الكولونيل، وصار هو الحاكم الفريد للبلد، فخفّت الرّقابة قليلاً لكنّه بقي كالمنبوذ لا يستطيع أن ينشر ما يكتبه في أيّ مكان» (بشير، 2017)؛ هذا التّداخل السّياسي فرض منطق المدينة، بإخضاع الواقع للانقسام الأيديولوجي أين يشعر المثقّف أنّه مقيّد، ولا سبيل له إلى تحرير فكره، وأنّ قلمه سلاح بيد السّلطة التي

تفرض صرامتها في قول حقيقة المدينة وحوادثها، فمثل هذه السّجنية هي: «ما عاشه المثقف المناهض للسلطة، حيث مُرست عليه مختلف أنواع العنف المادي والمعنوي لفرض الطّاعة على الرّعية، وعلى كلّ من يحاول كشف سلبياتها» (الشريف، 2010)؛ خاصّةً لمن يرى المدينة بقلم ناقدٍ لحالها ومعبرٍ لسلبياتها، ففرضت سلطتها رقابة عمّا يقوله بقلمه الصّامت، حيث أصبح له مقروئية واسعة في ظلّ الصّدى القمعي، التي يحاول أن يتجاوز فيها القلم عمّا لم يستطع أن يتجاوز فيه اللّسان ويخضه المثقفون والحقوقيون في الرّفص المعلن لسياسة القضبان الحتمية على كلّ المعارضين للتّبعية المطلقة، وما هذا التّخوّف في حرّية ممارسة الفكر إلّا نظام قهري لا يمكن كسره أو إلغاؤه، ممّا أصبح ضحية للمكان وسياسته.

غاب عن الفضاء المدني مدلوله الحضاري وأصبحت كلّ أبعاده مرجعية لسجن كبير ينغلق على زنانات انفرادية؛ التي تصبح أكثر أمّاناً من الانغماس مع بقية المساجين-المجتمع-يمثل في رفض الراوي الخروج من حصار الجدران وانغلاق الباب والتّوافد عليه بقوله: «لن أخرج إلى الخارج... الدّاخل أجمل. لكنّ الأمان معدوم. لو جاء أيّ واحد لقدّر على هتك الجدران والباب والتّافذة... لهذا ليس الدّاخل هنا بقادر على حمايتي أمّا الخارج فهو عزلة جماهيرية داخل رعب العالم...» (بشير، 2010)؛ هذا الخطاب الرافض بين جدلية الدّاخل والخارج، جعل منه متساوياً أمام وضعية الأمان، حيث صنع اللّأمان تطابقاً بين الدّاخل والخارج وأصبحت كلاهما رؤية واحدة، جعل فيها الخطّ الفاصل وهمياً حسب تعبير هنري ميشو وهذا ما يتوافق مع ذات الراوي، إذ صيغ المكان مع فضائه حسب إحساسه المقهور بأنّ تيه إنفراديته الخاصّة وبين المدينة سجن يضمّه وهو كبير ومفتوح، فبعد خروجه لا يطلّ إلّا على عزلة تقيدها قضبان وهمية وشفافة تصنع رعباً جماهيرياً.

تساعد حالة الممارسات القمعية، تسبّب في تصدّع وانشقاق نفسي وانفصال بين الجسد وهويته إذ تشعر شخصيّة زهية بحالة نكران لوضعها الاجتماعي وإنتماؤها لفضاء المدينة وهي تقول: «لا أدري من أنا. والجزائر هذه التي يتصارعون حولها لا أعرفها ولم يُشعرن أحد بأهمّية أن أعرفها. لقد ولدت في عالمهم ذاك، حيث الأقفاص تسدّ عليّ منافذ الخروج، وحتّى نوافذ الحلم» (بشير، 2017)؛ فانهيار قيمة الذات يصنع أثراً على خوالج التّفكير، تصبح فيه الذات مغترية، هذا الشّرخ الانتمائي في طرح تساؤل عميق حول جسدين- الذات والبلد- شكّل تغريباً لكلا الجغرافيتين أين تقع المدينة داخل هذه الذات المجهولة لهويتها فهذا الخطاب البانورامي الوجداني عن مقام هذه الشّخصية في بلد كبير لا تجد لها تفسيراً إلّا بتعبير مأساوي، الذي أضى مكاناً خاوياً ومغلّقا ومغلّقا باللا معنى؛ ف«ليس غريباً أن تتغيّر الرّؤية نتيجة حالة الاغتراب التي تعيشها الذات الإنسانية، حيث تعاني الذات حالة من الانفصال نتيجة سلب المعرفة وسلب الحرّية والتّناقض القائم في الواقع المعيش بين ما هو كائن وما يجب أن يكون» (مبروك، 2008)؛ ضمن حياة اللاّ معنى للوطن الذي تشعر بها الذات أصبحت المدينة مجهولة بالنّسبة لها، إذ أنّ ما تقدّمه المدينة هو ما يعطي للذات وجودها، في حين السلب القسري لكلّ شروط الوجود الإنساني، يصبح الفضاء مفرغاً من المشاعر الإيجابية.

إنّ وضع المدينة أصبح غير مستقرّ، حيث صاحب الحالة الشّعورية المتدهورة والمخيفة لشخصياتها، والمدينة بهذا المعنى أصبحت حالة محسوسة تتوطّن في الذات، كما تتوطّن الذات بها فيصبح التّأثير والتّفاعل مباشراً، إلّا أنّ هذه الصّورة الانعكاسية لم تتجلّ في شخصيّة سميرة قطاش التي بعد سنتين من إقامتها بمدينة تيزي وزو ما زال فضاؤها غريباً، تقول: «غريباً عن سكّان المدينة وأجوائها مع أنّي تأقلمت وأستطيع التحدّث بلغتهم، هذا جيّد... لكن ما مصدر الغربة بالضبط؟ الشّعور بالخواء. _ الخواء! نعم، هذا الإحساس أن لا شيء يملأ قلبك، ويسعد روحك في الحياة» (بشير، 2019)؛ ومن الملاحظ أنّ التّجرّد من الأحاسيس الآمنة خلق فراغاً مخيفاً، أفقد هذه الشّخصية قابلية الانتماء، إذ يرجع إلى غياب عنصر التّجذّر رغم امتلاك اللّغة التي تظهر على أنّها غير مهمّة للشّعور بالانتماء، ففهم الآخر لا يحقّق الألفة بقدر ما تحقّقها ألفة المكان، كما يُسهّم الخواء في صناعة عالم «العبث والاغتراب واليأس والفشل والسّقوط» (جلولي، 2009)، في الأحاسيس المفرغة من اللاّ شيء، ومن المعنى في حدّ ذاته، والظّاهر أنّ واقع المدينة كان سجنية خانقة على من

لا ينتمي إليها، إذ لا يملكون من خبرتها الاجتماعية إلا بعضاً من غربتهم المجردة إليها، ومن هنا يصبح الكيان الثقافي غير كافٍ لامتلاك المدينة دون امتلاك كيانها التاريخي، يظهر هذا قيمة «الهوية باعتبارها صورة مثالية ترسمها الأنا في لحظات التمايز العرقي والاختلاف الثقافي؛ لتثبت ذاتها في لحظة تاريخية معينة» (سماعل و رشيد، 2017)، والسير مع مراحل تبلورها ومواكبة تغيراتها وطريقة ممارسة الحياة على عقود من الزمن، نظراً للخصائص المتميزة والمتباينة في ممارسة الحياة الاجتماعية بين المدن، فمن بين التفاصيل الوحشية في فضاء المدن حالة ركودها التي تشهد على تكرارية الأفعال والممارسات، تخلق تازماً نفسياً منقبضاً، يقول الراوي: «ثقل الانتظار والروتين اليومي، والتعود على نمطية الحياة في مدينة الجزائر العاصمة، حيث لا مفاجآت ولا توقّعات بتغيّر الأمور إلى أحسن» (سماعل و رشيد، 2017)؛ فقد شكّلت العاصمة مركزية الحركة في تكوين المدينة، إلا أنّ الجزائر تعيش حالة ركود لا توجي بتغيّرها أو تحركها نحو الأحسن، فأصبحت روتيناً باعثاً على الانقباض بصورة محمّلة بثقل الانتظار، فهذا هو الشكل الحضاري الطّارئ على العاصمة، فقد أضحت في النهاية مسلوقة الانسراح، يصفها الراوي قائلاً: «هذه المدينة (...)، تريد أن تبقى مسجوناً في الإسمنت والحديد والجدران التي تفصل الحياة عن الشّعور» (بشير، 2017)؛ يلخّص حيوية المدينة في رقتها بإحساس مرهف في نطاقها الثقافي وليس في هندستها الحضارية التي تشكّل فضاء أصمّ من كتّلات إسمنتية تعتقل الشّخصيات وتجعلها جماداً تحت قبضة التّوابع والبدائل في نظام المدينة العصرية حديثة التّحرّر الشكلي أمّا نظامها فهو سجن أبدي مفتوح على اللّاهاية للتحوّل والمطاوعة لما هو دخیلٌ غربي، فحينما يتحدّث ابن البلد عن وطنه الإسمنتي السّجين، فإننا ندرك المحمولات التي أنهكت وجوده أو محاولة وجوده.

ينتهك الفضاء ويخترق سيكولوجية شخصياته فيسكن ذواتهم ويتحكّم في أحاسيسهم، هذا ما صنعتها الجزائر في زمنية انزلقها الحديث، حينما سكن مدنها بطريقة سلبية ممّا خلق أزمة روحية، نفسية جسدية لم تتمكّن الذّوات التّصلّ منها، أصبحت لصيقة واقعهم العنيف والروتيني ممّا سبّب تازماً سجنياً في رؤيتهم لها على أنّها قضبانٌ لسجن كبير، تحمل أماكنهم منفردتهم- زنزانهم- فلا أمان يقبع داخل قوقعتها الوهمية التي تنقبض وتنخق بانزلاقات حوادثها، سارقة منهم كلّ شيء من اللا شيء، لأنّ الواقع فيها يتحكّم حتّى في صناعة اليأس من المستقبل داخل حاضر منكسر.

2. انعكاسات المدينة السّجن على شخصياتها:

1.2_ الخوف والفرع:

تستضيف المدينة فضاء حضارياً يرحّب بكلّ جديد، شعور الخوف والفرع الذي يظهر جلياً على شخصياتها أثناء تصرّفاتهم اللاشعورية تجاه هذا الفضاء الرّهيب في تكويناته الحداثيّة التي لا تغربل ما لا يليق بثقافتها، بل تستقطب ما يطّيح بها أكثر ممّا يلزمها ويشبعها، فحدّ التّخمة متزايدٌ وغير متشبع تجاه الآخر الغربي، هذا الغزو اللّامرئي في مدن الجزائر جعلها تحت غمار إستدمارية غير معلنة تتلاعب في تشكيلات الأمكنة ومحتوياتها ممّا يكسبها طابعاً مخيفاً.

ظلت المدينة حيناً من الدّهر تنبئ بالفرع الصّامت المفتوح على عدّة احتمالات، المسكونة بأشكال الدّمار والفساد، حيث تتدارك شخصية المثقّف مدينتها الصّماء المتوقعة بهواجس الخوف، يقول الراوي: «إلى حالة الفرع ممّا سيحدث له، وما سيحدث هو هذا بالضبط، ذلك العجز القاهر عن حمل الفرشاة ومواصلة رسم لوحته، وعجز على تشكيلها والتّحاور معها؛ كالسّجين وهو يحلم بالحرية البعيدة المنال. إنّه مستسلمٌ للحظته تلك، قابع في مكانه (...) انهيار سيذهب معه سميّر إلى حيث يريد وحيث النهاية، هي دائماً ضوء أسود (...) عادةً ما يردّد أنّ الحياة هي التي تخيفه، لأنّها تقدر على فعل أي شيء مدمر» (بشير، 2019)، فهينة الفضاء تفسّر طبيعة تصرّف الإنسان فيه، حيث يظهر الخطاب نسقية المدينة التي لا تعبّر عن حركتها الحرّة في التّصرّف والإبداع وعن تقييدها المدمر، توجي بزمنية السّجن الذي يطول أمده نحو الموت الذي أصبح

الخيار الأفضل في لحظاته المفتوحة على الحياة المخفية، وأصبح زمن الما قبل يؤشّر على خطورة زمن الما بعد داخل سياجات اللأ مرئي، تحمل من الفزع ما يجعل الموت رحيمًا، تتألف فيها الحياة مع الصّمت والاستسلام نحو انقيادها المحتوم.

تتجسّد سجنية المثقف داخل هذا الفضاء الملغم بحوادثه المأساوية في حسّه المرهف بكلّ ما يدور بداخله في فنّه، إذ له القدرة على فهم عمق الوطنية ومسارها، وتشخيص حالتها عبر فنّيته وفكره واستيعابه كلّ المخفيات العميقة في جوف سراديبه، وما كان على المدينة إلّا اغتيال هذه الرّموز وتجريمها على الحفر داخل جمالياتها ومساءلة ما وراءها من دمار داخل الممارسات الثّقافية.

أصبح المثقف خطرًا على قضبان هذه المدينة السّجنية، ولم يبقّ الخيار إلّا بين طريقتين: استسلامه المحتوم والقصري والقمعي، أو مجابهة المدينة والتّصريح بما يحدث بها وتحدث فيه، وبين الفعلين ضوء أسود بارز بين كلّ الألوان، وفي الواقع « إنّ فهم المثقف الكونّ على حقيقته لم يفده على أرض الواقع في التّواصل الفعّال مع مكوّنات المجتمع الذي ينتمي إليه، وعجز تمام العجز، إلّا في حدود ضيقة جدًّا، عن إنتاج المعرفة الكفيلة بإضاءة المُعتم، بله استشراف المستقبل الذي تقوم به المعرفة المؤسّسة تمام التّأسيس على البصر بالمحيط الاجتماعي والفضاء الثّقافي الذي يتحرّك ضمنه» (بشير، 2010)؛ فإعادة إنتاج المجتمع الضيّق أصبح خانقًا ومقيّدًا على وسائلهم التّعبيرية، إذ أصبحت أصفادًا تكبل أياديهم وتأسر تفكيرهم العميق، قدّم له الفضاء في المقابل تغريبًا جزاءً لمُعيتته وسط تفاهة المجتمع، هذه الخيبة التي تتوالى على شرائح المجتمع، تتقاسمها شخصية سمير الذي يهرب من ريشته ويرتمي في ليل الجزائر وفضائها الحضاري المرعب، يقول الراوي: «كان ينهض ليلاً ويخرج إلى الشّوارع الصّامّة... إلى مدينة غلّفها الخوف وحاصرها الدّعر وسيجها حظر التّجول، كان يخرج ليتحدّى ألم الحصار ودمار الرّعب الذي كان ينهشه...» (... فجأة يتوقّف عن الرّسم. يرتدي جاكيتة البنية. يضع على رقبته الشّال الفلسطيني. يحمل علبة سجائره ويخرج...» (شطّاح، 2014)؛ فهذه الدّراية الواعية بالهمس السّاري في فضاء صامت جعل الذّات تعاني في وحدتها، فهسيس الرّعب المترصّ لم يسقط من مسامعه، لم ير أنّ تحدّيه إلّا بإظهار ذاته المتعبّة من كلّ شيء حوله يلفّها شال المقاومة والتّكتّم والجهد الميؤوس منه، ينمّ هذا التّمثيل عن وضعية المثقف-الفنّان- بواقع سجن متسرّب من الوعي والإحساس وفرط التّفكير فيما ستشهده حوادث جهنّية من فرط هذا الحصار الحابل بالخوف والدّعر، فكلّاهما يؤلّد التّمرد وعدم الانصياع لطبقاته الدّونية التي تأسره في جحيمها وتنهشه فينهشها، فبينما تصبح المدينة قاعًا للجحيم يصبحون هم أبالسته.

شهدت المدينة نموّ الوحدة في نفسية شخصياتها وإنزواءهم بعيدًا عن كلّ ما هو مخيف ومفزع فيها ندخلها من طريق وصف الراوي وهو يتجول في مساءاته، يقول عنها: «في شارع العربي بن مهيدي الطّويل شعرت بأنّي وحيد، رغم أنّ النّاس ظلّت تتحرّك كالنّمل في كلّ الاتجاهات، ونظرت إلى السّماء فوجدتها غائمة تنذر بمطر سيسقط لا محالة. فكّرت أن أعود إلى البيت، لكنّ أحاسيسي بقيت مرتجفة من ذلك الشّعور الرّبقي الغامض بالوحدة والتّلاشي في دائرة من الخوف الضّبابي» (بشير، 2010)، ومن الملاحظ من هذا الخطاب السّردّي أنّ النّاس يتخبّطون في فراغ رهيب داخل حياة من اللأ معنى، تتحرّك دون دراية بمأل مسارها ومصيره الغامض تحت وطأة الخوف، طريق طويل مشبوه، تتّجه به هذه الرّؤية إلى تركيبة المجتمع في علاقاته التي يظهر عليها التّنافر والتّباعّد، فرغم الحركة الدّائمة والاكتظاظ إلّا أنّ المدينة تعيش بوجدان محتقن بالغموض والتّفسّخ والضّبابية، لا تقدّم وقائع صريحة، لتصبح فيها الذّات أسيرة لشعورها المهموم والمقلق.

عاش المثقف الجزائري أزمة الوعي بالفضاء، فلم تنقسم مشاعره إلّا بين الخوف والفزع من قول الحاضر فنّا، ومن توقّع المستقبل تفكيرًا، وقد أصبحت الذّات عميقة التّفكير في مصيرها ومصير المدينة التي تبدو فيها الحياة ضبابية لا تقدّم إلّا الانكسارات والزّهية، أصبحت الرّوح التّعبيرية أسيرة حالها، مئات التّفصيل تكتّمها الذّات خوفًا، ممّا يشكّل حالة نفسية متأهّبة لكلّ ما هو مأساوي.

2.2_ الضياع والتّيه:

إنّ من أبعث المراحل التي يعيشها الإنسان داخل فضائه هي شعوره بالتّشظّي، وغياب شخصيته وفقدان انتمائه وهويته في علاقته بوطنه- بلاده- بيته، أماكنه المألوفة، يجتاحه شعور باليأس والضياع وعليه تتحوّل الأماكن المألوفة داخل الفضاء إلى متاهة ومصدر للفراغ والمجهول، وعلى سبيل المثال ما جاء من سؤال على لسان الراوي بقوله: «مستسلم لشعور باليأس وصل إلى قمته، ثم سؤال عن جدوى الحياة في متاهة كهذه في بلد كهذا» (بشير، 2010)؛ وعليه فإنّ هذا الخطاب الاستفساري لا يحتاج جواباً في حقيقته وإنّما ينمّ عن الحالة التّائهة في سجنية هذا البلد الذي لا يسمح لزمّيته أن تعاش، فهو محكوم دائماً بنهايات مأساوية وفي أحسن المتخيّلات واقعه تشاؤمي، هذا ما يعني أنّ الاستسلام هو الشّعور السّلمي أمام فضاء تتداخل وقائعه وتتقاطع أماكنه على أحداث الإجرام والفزع من إستيهامات الفراغ، وما هذا اليأس في طرح التّساؤل إلّا خلفية عن انهيار ثقافي، حضاري، اجتماعي، أيديولوجي، مستمرّ حتّى في استشرافية مستقبل البلد، الذي حاضره يقدّم نتائج سلبية دائماً.

يغتصب هذا البلد أحلام ساكنيه، ويحرق طموحاتهم ويأسر تفكيرهم، حتّى أنّه يقتلع كلّ أواصر الارتباط به، فلا يبقى ذكرى رماد، وروائح الدّخان تتصاعد من التّفوس ألماً وتمزّقاً، هذا ما نراه في العلاقة المجزوعة بين الراوي ومدينته، يقول: «الشّعلة الوحيدة التي بقيت متوقّدة في عالمي. ضاعت مني في مدينة كبيرة اسمها وهران» (بشير، 2010)؛ إذ لا تستطع أن تحتفظ في فضاء كهذا، بأحاسيس تشعرك أنّك حيّ ترزق أو تضيء داخلك، ممّا يخلق تمزّقاً حدّ التّلاشي، كأنّ المدينة تمارس خطفها لكلّ معاني الحياة لتصبح جوفاء، تعاني الثّقوب والانكسارات الاجتماعية والثّقافية والسياسية، وما تقدّمه إلّا شروخ نفسية؛ عطب سيكولوجي يدمّر كيان المدينة بتدمير ذواتها.

بين التّيه والضياع رسمت الجزائر ملامح التّشظّي والتّفوق المعتم على مستقبل مجهول، طمس حاضره كلّ معطيات الأمل والأمان، فهذا الانقطاع والتّنصلّ الهوياتي سبب محنة وطن مكوم في انتمائه المتجذّر، حيث أصبحت الدّات ضائعة ومغيبّة في تلافيف حوادثه وأصبحت الحياة فيه بلا هدف أو طموح، انكسارات متوالية، يلاحقها الإحساس بالقهر، وما الضياع والتّيه إلّا رسالة عن وطن يكابد شخصياته اجتماعياً، وتسعى جاهدة في الحفاظ على روابط الدّات بالمكان، إلّا أنّ النتيجة لم تكن إلّا سلبية تؤدّي دوماً إلى القهر الإنساني والعنف الاجتماعي الذي انعكس على الأماكن أيضاً.

2.3_ الهروب والفرار:

إنّ التّغيّرات الحاصلة في البلد-الوطن-أحدثت فجوة هلع في نفوس مواطنيه؛ ممّا ألزمهم تغيير حياتهم وتغيير جغرافيتهم، حتّى لو كان هذا التّغيير وهمياً أو نفسياً، فسجنية الوطن-المدن-ضاقّت وطالت وتآزمت، ولم يصبح سوى الفرار والهروب الكليّ أو المؤقت هو الوسيلة الوحيدة للعيش ببقايا ذاكرة عن وطن الانتماء. فالمدينة السّجن عرض لتمثيلات نفسية لشخصيات يضيق عليها الفضاء ويقيدها، ممّا جعلها ترى عالمها خانقاً ومكبّلاً بشكل هادم ومحفّر للهروب.

لم يكن على شخصياته إلّا الاستعانة بمذاهبات العقل حتّى يتخلّص من فظاعة وضعه، تلك الفئات المستضعفة التي اتّهمت بعدائها السّلم الاجتماعي وأصبح النّاس يتهمونها بخراب الوطن؛ يقول الراوي ساردا: «فأنت عدوّهم الأوّل، الخائن الكبير لهذا الوطن والآن هيا أشرب كأساً أخرى في سبيل سفرك القادم... في نخب الفرار من هذا البلد» (بشير، 2010)؛ ومن الملاحظ أنّ الفترة السّجنية داخل ما يسمّى الوطن لا تنقضي إلّا بالشّرب، حتّى يتخلّص من وضعيتها التي تشدّ نفسيته وتجزمه، وتنعته بهم تنهك وطنيته ولم يكن الشّراب كافياً، بل استعانت بعض الشّخصيات بأنواع أخرى من الهروب الدّاتي، هذا ما يصفه عزيز عن حالته بقوله: «ما الذي بقي لنا لنتمسك به؟... لقد ضاعت الأحلام الكبيرة ولم يبق أمامنا إلّا هذه الرّطلة نهرب بها من مواجهة المسائل الحقيقية...» (بشير، 2010)؛ حيث لم تكن المشكلة الحقيقية إلّا ذاك

القفص الذي يُدعى البلد، الأحلام التي تبخّرت وأصبحت أوهامًا ضاربة، كانت الرّحلة هي المنتوج السّحري للتّخلّص من أعباء التّفكير العميق والمفرط في طريقة المواجهة والتّخلّص، فما توحى به هذه الظّواهر ما هو إلّا انحلال اجتماعي في ظلّ أزمة البلد، تفسّخ وانحدر يعلن عن واقع مرير، معلنة الانتقال من عالم التّحضّر إلى عالم استباحة الممنوعات وممارسة المحظورات في إنتاج فردٍ لا مسؤول سعى دومًا للتّخلّص من وجوده وعبء وطنيته، التي أصبحت هويته في المكان هاجسا لحلمه وتحدياته من أجل التّمسك أو البقاء.

لم تبق فكرة الفرار ذهنيًا فقط، بل طالت الهروب والسّفر بعيدًا عن المدينة أو البلد ككلّ حتّى يتحرّر الجسد نهائيًا، يقول الراوي: «أحسّمه وأترك البلد، هي فرصة لا تعوّض، ... فرصة لتخرج من القيود إلى التّحرّر الأبدي. هناك سترى العالم بعينين مشرقتين. هناك تقدر على حبّ بلدك كما ينبغي. هناك ستبصر كلّ ما هو جميل ونَصِر. ستدرك كم تغيّر العالم، وكم تجمّدنا نحن... اذهب... لا تناقش... إنسان هذه الأرض الصّغيرة هي نبتك...» (بشير، 2010)؛ عبر هذه السّردية يلعب الراوي قيود إحدى الشّخصيات-مصطفى- الذي يرى أنّ هربه، هربًا إيجابيًا إلى حياة منفتحة، إذ يجتمع في الخطاب متناقضان بين الوطن والغربة والسّكون والحركة، وبين السّجن والحرية، فما سلبه الوطن غصبًا تمنحه الأوطان طواعية فمن خلال المقارنة المطروحة يظهر جليًا الوضع المأساوي لبلد داخل خريطة العالم الذي يحمل من الانفتاح وحرية الممارسة ما تسلبه رقعة وطن تتوقع على ساكنيها وتمارس عليهم لغة الاستبداد، هذا ما جعلها سلبية بالنسبة للمغترب، وأنّ كلّ ما هو موجود محفّز على الهجرة، فالحياد الشّديد والمقيّد هو ما «يميّز المغترب عمومًا في علاقته مع أمكنة الغربة التي تستدعي، غالبًا، في سياق المقارنة مع أمكنة الوطن، موطن الجمال هناك في مقابل القبح والبشاعة هنا، بينما تلتبس المدن البعيدة بالجمال والسّحر والألوان، ومن ثمّ ينفّث الفضاء الرّوائي على جدل رهيب عاشه المثقّفون جميعًا وهو تقاطب ال(هنا) وال(هناك)» (شطّاح، 2014)؛ يطرح هذا التّوصيف المتواتر في تصنيف الفضاء تبريرات الغربة، التي تكون الهجرة المجبرة سبيلًا إليها، فهذا الإجماع لا يلد إلّا قناعة تامّة بحتمية السّفر ورؤية ال(هناك) في صورة مثالية حاملة، تكمل وترقم خللاً ونقصاً ل ال(هنا).

رغم الاختلاف مع ال(هناك) وتمايز الكفاية النّفسية للشّخصية المهاجرة، إلّا أن فضاءها الأصلي أصبح منبوذًا ومُوحشًا، يقول الراوي عن سفر الشّخصية المثقّفة: «مصطفي هاجر إلى بلد آخر... واستطعت أن أطمئنّ عليه، كان لا بدّ أن يفعل ذلك من أجل أن يجد راحة القلب وسعادة الكتابة بكلّ حرية وتوقّد» (بشير، 2010)؛ وعليه، فشخصية المثقّف تبحث عن وطن بديل حتّى تتحرّر وتحقّق سعادتها، نتيجة للبلد الأصلي الذي يوحى بالصّرامة فيما يكتب عنه، باعتبار القلم مفتاحًا يصنع خروج المتمرّدين من قضبان الوطن، حيث يفتح عدّة منافذ وممرّاتٍ في إعادة خلق ذات معادية، متمرّدة تستطيع مجابهة "نعم" وتشكيل وعي رافض وغير خاضع، إذ كان الفكر أكبر ما يهدّد سجنية المدينة ومغاليقها، فالانفتاح الفكري يستطيع استنبات الدّوات بثقافة تعي عمق الخلل وتفنّده.

لم تورث المدينة السّجن إلّا القسوة والصّرامة في فرض الواقع الذي يتعالى على السّعادة ويحقّق المساواة في زراعة المأساة، التي تستصغر كلّ الأحلام وتقضي عليها، فتصبح الهجرة هي الخلاص بالبقية المتبقية من الدّوات التي تحاول أن تتمائل في غير منبتها، لتقدّم صورة إيجابية لما بقي من حياتها هذا ما تجده الشّخصية مناسبًا في سردها عن علاقتها، أرادا تأسيس حياة زوجية بعيدة عن موانع البلد وحدوده الفاصلة بين السّعادات المحقّقة، لتقول: «اقترح على أن نسافر بعيدًا ونهرب من هذه الجزائر التي سرقت منا شبابنا وأحلامنا وآمالنا كلّها... ومن هذه الدّوامة التي إن بقينا فيها لن نخرج منها سالمين» (بشير، 2019)؛ ومنه وقع الاختيار الأنسب لاستعادة الحياة الكريمة بالاستعانة بالبدل، في رحلة بحث عن سلام داخلي في فضاء جديد تتطابق فيه الحاجات من أحلام وآمال على غير ما تسلبه الجزائر موطنًا أصليًا من حريات الفعل والممارسة والتّأكيد، فقد فشلت الدّوات في فهم البلد، كما فشل البلد في تحقيق مقاصد الدّوات المستضعفة التي تحاول أن تعيش بكلّ حقوقها الهويّانية.

إنَّ فقدان التّجارب بين الوطن وشخصياته، أدّى إلى أزمة وجود فعلي، ما رسّخ فكرة الهروب والفرار بحثاً عن الكمال وتعويض النّقصان، فأصبح البلد الغريب بديلاً عن الوطن الأصلي، وانزاحت الهوية وجذور الانتماء أمام غربة الوطن، لتضحي الهجرة هي السّبيل الوحيد لتحقيق السّعادات، فلم تكن الهجرة نابعةً من رغبة الدّات بين الوطن الأصلي والوطن المغترب فيه، بل كانت رهبةً وقراراً، تخلصاً وتجاوزاً، تركاً وتخليّاً مُجبِراً للمحافظة على السّلامة الجسدية والنّفسية، بحثاً عن استكمال الدّات وفرض وجودها، هذا الوجود المسلوب والمنهوب تحت مسعى: الوطنية والمصلحة العامة.

3. النتائج والتوصيات:

بعد سلسلة من المطروحات حول المدينة السّجن التي تمثّلت وانعكست في علاقاتها بذواتها توصّلنا إلى مجموعة من النّتائج، والتي تمثّلت في الآتي:

- ← أسقطت وهمية القبضان الوجود الفضائي في مفاصل سيكولوجية.
- ← قدّمت مدن مفتي مشاهد زنزانية خانقة عن الدّوات التي تعيش فيها، ممّا قيّد فكرة العيش المدني السّعيد داخل الفضاء الحضاري الثّقافي.
- ← عانت شخصيات المدينة السّجن ازدواجية الشّعور بين الوطنية والتّخلي، ما جعل الحياة مملّة وروتينية، لا يتجدّد فيها إلاّ المأساة.
- ← اغتصبت المدينة السّجن الأحلام والأمال تحت مسعى الوطن والبلد، ووسّعت دائرة الخوف والفرار.
- ← لم تقدّم تمثيلات المدينة السّجن إلاّ صورة بكائية عن خطاب المدينة الحديثة في زمنية طارئة واستعجالية لحقت الجزائر.
- ← عاشت الجزائر بمدنها حوادث ووقائع تشرذم فيها المكان وتاهت بها الشّخصيات وتخلّت عنها مفاهيم الحضارة ومقومات الثّقافة.
- ← استبدل الفساد في الفضاء المدني وأصبح الخوف عباءة المدينة ومستقبلها المحتوم تحت كابوسية التّوقع.
- ← تشظّلت العلاقة بين الشّخصية ومكانها، وانقطعت أواصر الألفة وأصبحت المدينة غريبة، والدّات مغربة.
- ← بين الانفرادية والسّجن الكبير عاش المثقف يجرّ ويجتر ويلات الوطن، حبيساً ومقيّداً من الممارسات الفكرية أو الفنّية في قول الحقيقة أو مجابهتها.
- ← لم يكن الفرار والهروب سوى الوسيلة الوحيدة لإثبات الدّات وتحقيق ما سلبته المدينة السّجنية.
- ← فشل الدّات في بلدها-مدنها-يشجّع على الهجرة والاغتراب في اختيار بلدان بديلة تحقّق الكماليات وترمّم النّواقص.
- ← بعد مجموعة من النّتائج التي خلقتها دراستنا حول المدينة السّجن في ثلاثية مفتي عن تمثيلات سردية لمدن الجزائر وما أضحت إليه من حالة سيكولوجية في رحلة بحث عن الاستقرار الشّخصي الذي ينعكس مباشرة على المكان، يبقى السّؤال مطروحاً فيما بعد هذه المدن في المدونات السّردية الجزائرية: هل يستطيع أن يحقّق البلد البديل ما عجز عنه البلد الأصلي؟ هل تتوقّف رحلة البحث عن الفضاء السيكولوجي المثالي؟ ماذا يوجد ما بعد الكمال الحضاري والثّقافي داخل المدن؟

الإحالات والمراجع:

1. يمنى العيد، الرواية العربية المتخيل وبنيتها الفنية، دار الفارابي، بيروت، لبنان، ط1، 2011، ص8.
2. علي عبد الرؤوف، مدن العرب في رواياتهم، مدارات للأبحاث والنشر، القاهرة، مصر، ط1، 2017، ص65.
3. المرجع نفسه، ص65.
4. محمد غزالي، لامية صابر، البنيات الثقافية والعصية داخل الفضاءات المغلفة رؤية سوسيولوجية للوضع داخل السجن، مجلة العلوم الإنسانية لجامعة أم البواقي، المجلد 5، العدد 2، ديسمبر 2018، ص256.
5. غاستون باشلار، جماليات المكان، تر: غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، لبنان، ط2000، ص197/198.
6. يُنظر: غاستون باشلار، جماليات المكان، ص198.
7. بشير مفتي، أرخبيل الدّباب، الدّار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط2، 2010، ص29.
8. المصدر نفسه، ص38.39.
9. بشير مفتي، أشباح المدينة المقتولة، منشورات ضفاف، منشورات الاختلاف، لبنان، ط2، 2017، ص28.
10. الشّريف حبيّلة، الرواية والعنف: دراسة سوسيو نصّية في الرواية الجزائرية المعاصرة، ص13.
11. بشير مفتي، أرخبيل الدّباب، ص86.
12. المصدر نفسه، ص135.
13. بشير مفتي، أشباح المدينة المقتولة، ص83.
14. مراد عبد الرّحمان مبروك، جيوبوليتيكا النصّ الأدبي، دار الوفاء لدنيا الطّباعة والنّشر، ط1، الإسكندرية، مصر 2008 ص10.
15. بشير مفتي، اختلاط المواسم، أو وليمة القتل الكبرى، منشورات ضفاف، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2019، ص85.
16. عبد الحفيظ بن جّولي، الهامش والصدى، قراءة في تجربة محمّد مفلّح الرّوائية، دراسة دار المعرفة، الجزائر، د. ط2009، ص58.
17. وهيبه سماعيل رشيد رايس، تضاييف اللغة والهوية في رواية مملكة الفراشة "الوسيني الأعرج"-مقاربة ثقافية-، مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية، مجلد 10، عدد 3، جامعة العربي التبسي، تبسة، 2017، ص183.
18. المرجع نفسه، ص183.
19. بشير مفتي، أشباح المدينة المقتولة، ص222.
20. بشير مفتي، اختلاط المواسم، ص145-146.
21. بشير مفتي، أرخبيل الدّباب، ص39.
22. عبد الله شطّاح، مدارات الرّعب: فضاء العنف في رواية العشرية السّوداء، مطبعة الألف، ط1، برج الكيفان، الجزائر 2014، ص146.
23. بشير مفتي، أرخبيل الدّباب، ص102.
24. بشير مفتي، أشباح المدينة المقتولة، ص251.
25. بشير مفتي، أرخبيل الدّباب، ص77.
26. المصدر نفسه، ص21.
27. المصدر نفسه، ص52.
28. المصدر نفسه، ص23.
29. عبد الله شطّاح، مدارات الرّعب فضاء العنف في رواية العشرية السّوداء، ص150.
30. بشير مفتي، أرخبيل الدّباب، ص112.
31. بشير مفتي، اختلاط المواسم، ص238.

List of sources and references :

1. Mufti, Bashir. *Mixing of Seasons or the Great Feast of Murder*. Dar Al-Ma'rifah Publications and Ikhtilaf Publications, 2019. 1st ed .
2. Mufti, Bashir. *Archipelago of Flies*. Dar Al-Arabia for Science Publishers and Ikhtilaf Publications, 2010. 2nd ed .
3. Mufti, Bashir. *Ghosts of the Murdered City*. Dar Al-Ma'rifah Publications, 2017. 2nd ed .
4. Al-Sharif, Habila. *The Novel and Violence: A Socio-Textual Study in the Contemporary Algerian Novel*. Alam Al-Kutub Al-Hadith, 2010. 1st ed .
5. Shattah, Abdullah. *Orbits of Terror: The Space of Violence in the Novel of the Black Decade*. Matbaa Alif, Burj Al-Kifan, Algeria, 2014. 1st ed .
6. Abdel Raouf, Ali Abdel. *Arab Cities in Their Novels*. Madarat for Research and Publishing, Cairo, Egypt, 2017. 1st ed .
7. Abdelhafidh Ben Jellouli, *The Margin and the Echo, A Reading of Muhammad Muflih's Novelistic Experience*, Dar Al-Ma'rifah Study, Algeria, 1st ed., 2009.
8. Bachelard, Gaston. *Aesthetics of Place*. Translated by Ghaleb Halasa, University Institution for Studies, Publishing and Distribution, Lebanon, 2000. 5th ed .
9. Mabrouk, Murad Abdel Rahman. *Geopolitics of the Literary Text*. Dar Al-Wafa for Dunya Printing and Publishing, Alexandria, Egypt, 2008. 1st ed.
10. Ghazali, Muhammad, and Saber Lamia. "Cultural and Nervous Structures within Closed Spaces: A Sociological Perspective on the Situation Inside Prison." *Journal of Humanities of Umm Al-Bawaqi University*, vol. 5, no. 2, Dec. 2018 .
11. Al-Eid, Yumna. *The Imaginary Arab Novel and Its Artistic Structure*. Dar Al-Farabi, Beirut, Lebanon, 2011. 1st ed .
12. Rais, Rashid, and Smael Wahiba. "The Interplay of Language and Identity in the Novel 'The Butterfly Kingdom' by Lucini Al-Araj: A Cultural Approach." *Journal of Social and Human Sciences*, vol. 10, no. 3, University of Arab Tebessi, Tebessa, 2017.